

الآراء التي تسيرنا

إن هذا العالم الذي نعيش فيه تسيره مجموعة مختلفة من الآراء ، بعضها يدفعنا إلى الأمام وبعضها الآخر يدفعنا إلى الخلف . الآراء الأولى تعمل لتقدم الانسانية وتعيننا على تحقيق ما نصبو إليه . والآراء الأخرى تقف عقبة في سبيل التقدم وتعوقنا عن تحقيق ما نرعى إليه من أغراض . وقد كتب الفيلسوف الانجليزي المعاصر برتراند رسل بحثين موجزين تعرض في أولهما للآراء التي آذتنا ، وفي ثانيهما للآراء التي عاونتنا . وقد رأيت أن أقدم هذين البحثين في مقالين أخص بهما قراء هذه المجلة . وسوف أعرض في هذا المقال للآراء الفاسدة التي تسود العالم وتعوق تقدمه .

إن التكتبات التي حلت بالانسان خلال العصور التاريخية جميعاً ترجع إلى عاملين أساسيين : أولهما البيئة ، وثانيهما العقائد الخبيثة التي يبثها بعض من يتزعمون قيادة الفكر الانساني . فقد كان الانسان في العصر القديم يقاسى المجاعات بين الحين والآخر من أثر العوامل الطبيعية ، ولكنه اليوم يقاسى الحرمان والجوع بسبب الآراء الفاسدة التي يسير عليها من يتولون الأمر منا . ولا مراء في أن الآراء الفاسدة أقوى أثراً من البيئة في عرقلة التقدم البشري . ويمكن أن نفكر فيما آل إليه أمرنا بعد الحرب العالمية الأخيرة لندرك مقدار ما جناه علينا كبار الساسة في العالم . فالانسان — كما يقولون — أكبر عدو للانسان ، وأكثر ما يصيبنا من شر مصدره ما في عقل الانسان من غباء وما في نفسه من حب للشرّ دفين .

إن كثيراً من ميولنا مافل دنيء ، وما أكثر ما نصوصغ من رأى فاسد ومبدأ غير قويم حجباً نستتر بها هذه الميول . فكان يُحكم مثلاً على الزنادقة في لشبونة في العصر القديم بالإحراق العلني . وكان يحدث أحياناً أن تخفف هذه العقوبة بحق المذنب قبل إحراقه

تخفيفاً للآلام التي يعانينا . فكان هذا التخفيف يسئ إلى الجمهور أشد الاساءة ؛ لأن الآهات والأنات التي كان يصيح بها المذنب من فعل اللهب تسرّى عن المتفرجين وتبعث السرور في نفوسهم . وهذه المتعة التي كان يجدها الجمهور في تعذيب الآخرين كانت تدفعهم إلى الاعتقاد بأن إحراق الزنادقة أمر مشروع . وكذلك كانت الحال — وما تزال — في الحرب ذاتها ؛ فان قوماً أشداء متوحشين يستمتعون بالقتال وبخاصة إن كانوا ظافرين غير خاسرين . وهم من أجل هذا يحاولون إغراء مواطنيهم بأن الحرب حق مشروع . وكذلك الرب الذي يرى ضرورة استخدام العصا كثيراً ما يدفعه إلى هذه العقيدة حبه إيقاع الأذى بالأطفال .

ومن اليسير أن نضرب الكثير من الأمثال تثبت بها صدق النظرية التي تقول بأن الآراء التي تسوّغ القسوة مبعثها رغبة في القسوة كاملة . وأكثر الآراء العتيقة التي نمجها اليوم تسوّغ إيذاء الآخرين . وقد كان «البنج» عند أول اكتشافه واستخدامه يعتبر شراً من الشرور ؛ لأنه محاولة لمقاومة الإرادة الإلهية التي تقضى بالعذاب والألم ! وكان يظن بالمجنون مس من الشيطان ، ولا سبيل إلى إبعاد هذا الشيطان إلا بإيلاء المجنون ، وإزعاج الشيطان الذي يتلبس به . ومن ثم كان المجانين يعاملون بمنتهى القسوة والتوحش . وكذلك كان يعامل الأبناء والزوجات والحيوان . ومرد ذلك كما قلنا إلى ما عند الإنسان من رغبة في إيقاع الأذى بالآخرين ، وهو ما يطلق عليه اسم «السادزم» .

ولعل أقوى الآراء أثراً في تأخر الإنسان هو ما نستطيع أن نسميه بالخرافات الدينية ؛ فقد كانت بعض الأديان القديمة مثلاً تزعم أن التضحية البشرية تعود على الفلاحين بمحصول زراعي وافر . وكانت هذه الظاهرة تعلل في مبدأ الأمر بفعل السحر ، ثم عللت بعدئذ بأن دماء الضحايا تسر الآلهة الذين كانوا من غير شك على صورة القوم الذين يعبدونهم . وكذلك جاء في العهد القديم أن الدين يحتم إبادة الشعوب المهزومة إبادة تامة ، وأن إعفاء ماضيهم وأغناسهم من القتل إثم من الآثام . وكان المصريون القدماء يعيشون في رعب مما ينتظرهم من عذاب وآلام في الحياة الأخرى . وأوجدت المسيحية طائفة من القديسين المتشائمين امتنعوا عن الملاذ الحسية

واعترضوا الناس في الصحراء وحفظوا على أنفسهم اللحم والنبذ وعشرة النساء ، وحسبوا اللذة الروحية ، أسمى من اللذة البدنية . وكان من أمتع ملاذهم الروحية أن يتألموا العذاب المقيم الذي سوف يتعرض له الكفار والزنادقة في الدار الآخرة . إن من مساوئ الزهد أن الزاهد لا يرى في الملاذ ضرراً غير ضرر البدن . ولكننا يجب ألا نغفل عن أن اللذة الروحية البهتة قد تكون أسوأ الملاذ ، كما قد تكون خيرها . ونسوق لذلك مثالا الشيطان في الفردوس المفقود للتلن ، فان أسمى ملاذه أن يتدبر ما يستطيع أن يلحق بالإنسان من أذى ، وفي ذلك يقول شيطان للتلن : « يستطيع العقل أن يجعل من الجحيم نعيماً ومن النعيم جحيماً . » وهو في هذا لا يختلف عن الرجل ينعم في جنته بالنظر إلى عذاب الكفار في الجحيم ! ومن المؤكد أن احتقار الزهاد للملاذ الحسية لم يؤد بهم إلى الشفقة والتسامح أو غير ذلك من الفضائل التي يسوقنا إلى الرغبة فيها عدم الاعتقاد في الخرافة . بل الأمر على تقيض ذلك ، فان المرء حينما يعذب نفسه يحس أن من حقه من أجل ذلك أن يعذب الآخرين ويدفعه ذلك إلى قبول أية عقيدة تؤكد له هذا الحق .

ولا يقتصر هذا اللون من القسوة الذي يدفع إليه الزهد على العقائد المسيحية الصارمة التي قلما يعتنقها اليوم أحد ، بل لقد أثبت العالم غيرها من طرازها . فقد كان النازيون قبل استيلائهم على السلطة يعيشون عيشة شاقة ، مضحين براحتهم ومتعتهم ، متبعين في ذلك مبادئ نيتشه التي تدعو إلى الشظف والتشظف . بل إن النازيين حتى بعد استيلائهم على السلطة كانوا يرددون هذه العبارة : « المدافع قبل الزبد » وفي هذا الرأي تضحية بمتعة الحس في سبيل المتعة الذهنية في النصر المرتقب ، وهي المتعة عينها التي يتعزى بها شيطان للتلن وهو يحترق بنيران الجحيم . وهذا الضرب من التفكير هو بعينه الذي يسيطر على عقول الاشتراكيين المتحمسين الذين يرون أن الترف رذيلة ، وأن الجد في العمل هو واجبنا الأول ، وأن الفقر الشامل هو الطريق المؤدى إلى العصر الذهبي . إن الجمع بين الزهد والقسوة لم يخفف مع ضعف العقيدة المسيحية ، وإنما اتخذ له صوراً جديدة لا تتفق وروح المسيحية ؛ ولا تزال هذه العقلية تسير الكثيرين من عباد الله .

وكلنا يعلم أن الشر لا يلحق بالآثم وحده ، ولكنه كثيراً ما يلحق كذلك

بالبريء . ومن أجل ذلك قال الناس فيما مضى : لا بد أن يكون هناك من يجب الشر للشر . ومن ثم نشأت العقيدة في الشيطان والمشعوذ والساحر . وكانت الساحرة في العصور الوسطى هي المرأة التي تؤذى غيرها لمجرد الحقد وحب الايذاء لا لرغبة في فائدة تجنيها . وقد أعطتنا العقيدة في السحر حتى منتصف القرن السابع عشر منقذاً نظمئنا إليه تنفذ منه ميولنا نحو القسوة . وعلى هذا الأساس كانت محاكم التفتيش لا تعاقب الساحرات وحدهن ، ولكنها كانت تعاقب كذلك أولئك الذين لا يؤمنون بالسحر . ولما تقدمت العلوم وهدتنا إلى كثير من الأسباب الطبيعية بددت العقيدة في السحر ، ولكنها لم تستطع أن تقضى على الخاوف والاحساس بالقلق التي كانت الدافع إليها ، فانتقلنا من خوف السحرة إلى خوف الشعوب الأجنبية .

وأنقل الآن إلى باعث آخر من أقوى البواعث على بث العقائد الفاسدة . ذلك هو الحسد . فالفقير يحسد الغنى ويهمله بشدة الحرص والبخل ، والمرأة تغار من المرأة ، والموظف المتخلف يغار من زميله المتقدم ، ويعزو تقدمه إلى ملقه لا إلى قدرته . وقد أدى الحسد إلى نتائج سيئة خطيرة فيما يتعلق بالفوائد الاقتصادية التي تعود على الأفراد والأمم على السواء . والقصة التالية تمثل لما أقول :

كانت هناك في وقت من الأوقات مدينة متوسطة الحجم بها عدد كاف من القصابين والخبازين ومن إليهم . وقد فكر أحد القصابين المبالغين في الجد والعمل ذات يوم أنه يضاعف أرباحه لو أن كل قصاب غيره قد أفلس واحتكر وحده سوق اللحم . فخفض من سعر اللحم وأقبل عليه المشترون ، ونجح فيما كان يصبو إليه ، برغم أن خسائره كادت تستنفد كل ماله من رأس مال ورصيد . وقد طرأت هذه الفكرة عليها خباز مجد وحقق بها ما يريد واختفى من السوق كل خباز سواه . وحدث مثل ذلك في كل السلع التي كانت تباع في السوق . وكان كل من احتكر صنفاً من الأصناف يسعد بأسل تكوين الثروة . بيد أن القصابين المفلسين لم يعودوا لسوء الحظ قادرين على شراء الخبز . وكذلك لم يعد الخبازون المفلسون بقادرين على شراء اللحم ، وقد اضطروا إلى الاستغناء عن بحالهم ، واضطر هؤلاء العمال إلى الهجرة إلى بلد آخر . فكانت النتيجة أن القصاب والخباز وغيرهما من أصحاب الاحتكار أصبحوا يبيعون أقل

كما كانوا يفعلون فيما سلف من الأيام . إنهم نسوا أن الرجل قد يضارّ على يدي منافسيه ولكنه ينتفع بزبائنه ، وأن الزبائن يتكاثرون كلما ارتفع مستوى العيش العام . لقد جعلهم الحسد يركزون انتباههم في منافسيهم وينسون تمام النسيان مصلحتهم التي تتوقف على الزبائن .

هذه قصة خرافية ، والمدينة التي تحدثت عنها لم يكن لها وجود . غير أنك لو استبدلت بالمدينة العالم وبالأفراد الأمم ، كانت لك صورة من السياسة الاقتصادية التي يسير عليها العالم في هذه الأيام . فإن كل أمة تعتقد أن مصلحتها الاقتصادية تتعارض مع مصالح غيرها من الأمم ، وأنها تكسب إذا أفلس غيرها . وكان الانجليز في أيام الحرب العالمية الأولى يقولون : إن التجارة الانجليزية تفيد من كساد التجارة الألمانية ، ويعتقدون أن هذه النتيجة وحدها من خير ثمار النصر . وبالرغم من أن انجلترا في الوقت الحاضر تحب أن تجدها سوقاً في القارة الأوروبية ، وبالرغم من أن الحياة الاقتصادية في غرب أوروبا تتوقف على فحم منطقة الرهر ، فإن الانجليز لا يسمحون للصناعات القائمة على فحم الرهر ، بأن تنتج أكثر من جانب يسير مما كانت تنتج قبل هزيمة الألمان . إن فلسفة الاقتصاد القومي التي تعم العالم بأسره اليوم تقوم على عقيدة فاسدة ، وهي أن المصلحة الاقتصادية للأمة تتعارض مع المصالح الاقتصادية للأمم الأخرى . وهذه العقيدة الفاسدة تولد العداءات والمنافسات الدولية ، فتكون سبباً من أسباب الحرب . وهي بهذه الطريقة تصبح حقيقة ثابتة ؛ لأن تضارب الأمم في مصالحها يصبح أسراً واقعياً بمجرد لشوب الحرب . ولو أنك حاولت أن تفسر لرجل يشتغل مثلاً بصناعة الصلب أن انتعاش الأمم الأخرى قد يكون في مصلحته ما أمكنك إقناعه ؛ لأن الأجانب الذين يعرفهم معرفة جلية ، هم منافسوه في صناعة الصلب وحدهم . أما غيرهم من الأجانب فهم أشباح لاتربطهم به صلة عاطفية من أى نوع .

ذلك هو الأصل النفسي للاقتصاد القومي والحروب والمجاعات المصطنعة وغير ذلك من الشرور التي سوف تقوض مدينتنا وتأتى عليها . اللهم إلا إذا اقتنع الناس بعقائد غير هذه أوسع منها أفاقاً وأشد منها تعقلاً فيما يتعلق بتناول الصلات بينهم .

ومن الأسباب الأخرى التي تولد العقائد الفاسدة المؤذية حب التعالي والتفاخر . يفخر المرء بقوميته ، كما يفخر بعنصره ، وبجنسه ، وبالطبقة التي ينتمي إليها ، وبالمذهب الذي يعتنقه . فما أكثر ما أصاب العالم من احتقار الدول الكبرى للصغرى ، ومن التنافس بين انجلترا وألمانيا ، أو المجر ورومانيا مثلاً ! وقد أودينا من الزهو بالعنصر أكثر مما أودينا من الزهو بالقومية . فذو البشرة البيضاء يزدرى ذا البشرة السوداء وإن يكن هذا الأخير أرق منه عقلاً وأكثر منه تمدناً . والانجليزى يحقر الهندى مهما تكن ثقافته . والواقع أننا لا يمكن أن نعتقد فى تفوق عنصر على آخر لأى سبب من الأسباب . ولا تركو هذه العقيدة إلا إذا عززتها السيادة الحرية . فاليابانيون كانوا يحقرون الجنس الأبيض عندما كانوا ظافرين فى الحرب ، وهى استجابة للاحتقار الذى كان يحس به الجنس الأبيض إزاء اليابانيين أيام ضعفهم . ولكننا مع ذلك لانكر أن الزهو العنصرى قد لا تكون له صلة بالعظمة الحرية . فالأغريق كانوا يحقرون البرابرة حتى فى العهود التى كان فيها البرابرة يبدونهم فى القوة الحرية . وكان المستيرون من الأغريق يعتقدون أن الرق جائز مادام الرقيق بربرياً والسيد يونانياً . وأما إذا انقلب الوضع فإن ذلك يكون مضاداً للطبيعة . وكان اليهود فى الزمان القديم يعتقدون بتفوقهم على غيرهم من العناصر الأخرى . فلما أصبحت المسيحية دين الدولة اعتقد المسيحيون أنهم أرق عنصراً من اليهود . ولاسراء فى أن الضرر الذى يلحق بنا من أمثال هذه العقائد لاحد له . ويجب أن تتجه التربية إلى إزالتها . ولكننا نأسف أن نقرر أننا لا نفعل ذلك ولا نحاوله . ولا ننسى أن نذكر هنا نظام الطبقات فى الهند ، ذلك النظام الذى نجمت عنه الغزوات المتتالية التى قامت بها العناصر «الراقية» من أهل الشمال ، وهو نظام لا يقره العقل السليم ، كما لا يقر ما يزعمه ذوو البشرة البيضاء لأنفسهم من تفوق وارتقاء .

ومن الأمثلة العجيبة للتفاخر ما يعتقده بعض الناس — بل أكثر الناس — بتفوق الذكور على الاناث . وهى عقيدة لا تعترف بها الهيئات المسؤولة اليوم فى بلدان الغرب . ولم يكن هناك فيما أبى ما يدعوا إلى الاستعداد بالتفوق الطبيعى للرجل على المرأة غير قوة عضلاته . وقد رتب الرجل على

ذلك أنه لابد أن يكون أقوى عقلاً وأقدر على الابتكار وأقل تأثراً بالعواطف من المرأة وغير ذلك . وتحت هذا التأثير قرر علماء التشريع أن ذهن الرجل يتميز على ذهن المرأة . ولما ظفرت المرأة بحق التصويت تلاشت كل البراهين العلمية على تفوق الرجل ، وأخذ الناس يعتقدون بالمساواة العقلية بين الجنسين .

وقد كان لسيطرة الرجل على المرأة آثار سيئة ؛ فقد جعلت أشد العلاقات الانسانية إخلاصاً — أعنى الزواج — علاقة سيد ومسود بدلاً من أن تكون علاقة بين شريكين متساويين . ومن ثم ترى الرجل يتغزل في كل امرأة إلا زوجته . وقد فرضت سيطرة الرجال على الزوجات شيئاً من العزلة جعلهن غيبات لا يؤنس أزواجهن . بل ان المجتمع لينبذ المرأة المؤنسة المغامرة . ولما كانت المرأة التي تريد أن تحتفظ بشرفها — كما يرى الرجال الشرف — محملة لا تسرى ولا تلهم فان أرق الرجال مدنية في أرق البلدان مدنية كثيراً ما يمارسون العادات الجنسية الشاذة . ولما كان الزوجان في أكثر الأحيان غير متكافئين ، قويت عند الرجال شوكة السيطرة وعانى المجتمع من جراء ذلك ما عانى .

هذه التفرقة بين الرجال والنساء وما ترتب عليها قد انتهى عهدها في أكثر البلدان المتقدمة ؛ غير أنه لا بد أن يتقضى وقت طويل قبل أن يتعلم الرجال والنساء على السواء كيف يكتفون سلوكهم نكيفاً يلائم الحالة الجديدة تمام الملائمة . ومن الثابت أن تحرير المرأة كثيراً ما تعقبه في بادئ الأمر آثار سيئة . فانه يبعث الحقد في نفوس الرجال لفقدانهم سيادتهم ، كما يبعث النساء على التبجح كي يوضن ما سبق لهن من نقص . ولكننا نرجو أن يسوى الزمن هذه المشكلة كما فعل في غيرها من المشكلات .

وهناك ضرب آخر من ضروب التفاخر أخذ يحتفى في أكثر البلدان . غير أنه ما يزال قائماً في روسيا السوفيتية ، وهو تكبر طبقة على أخرى . فان الولد من أبناء طبقة العمال في روسيا يتمتع بميزات لا يتمتع بها غيره من أبناء طبقة البرجوازي . والواقع أن فوارق الطبقات لم تزل كل الزوال من جميع البلدان . ففي أمريكا مثلاً يعتقد الفرد أن ليس فوقه من يعلوه اجتماعياً مادام الناس جميعاً سواسية ، ولكنه لا يعترف أن ليس هناك من ينحط

عنه . لأن المساواة بين الفرد ومن يعلوه سادت في أمريكا من عهد جفرسون ، ولم تسد المساواة بين الفرد ومن ينحط عنه . والحقيقة أن موضوع المساواة بين الناس ينطوى على نفاق عظيم ويشويه كثير من الغموض . ويستحيل أن يتلاشى التمييز بين الطبقات ما دامت هناك هذه الفوارق الشاسعة بين الأفراد في الثروة . ولا شك أن المساواة الاقتصادية تعمل للتسوية بين الطبقات . وأثر الحرب الكبرى في هذا واضح لاحتاج إلى تنبيه . غير أن ضربا من ضروب النعرة مافقئ سائدا عند بعض الانجليز ، إلا أنها نعرة مردها إلى الترية وهجة الكلام ، لا إلى الثروة والمركز الاجتماعي بالمعنى القديم .

والتفاخر بالمذهب ضرب آخر من ضروب التعالي . فكثير من الأمريكان يعتقدون أن الصينيين قوم بغير فضائل ؛ لأنهم ملاحدة لا يؤمنون بما يدين به الأمريكيون . وكذلك كان المسيحيون والمسلمون في العصور الوسطى يتباهون بعضهم على بعض بالعقيدة الدينية .

كل هذه وسائل مختلفة يتخذها الناس لارضاء كبرياتهم وشعورهم «بالعظمة» . لأن الانسان لا يسعد إلا إذا كان لديه مايسوّغ به احترامه لذاته . نحن بشر ، فالبشر إذن هم الغرض من الخليفة كلها . ونحن أمريكيون — مثلا — فأمریکا إذن هي بلد الله المختار . ونحن بيض ، فلجنة الله إذن على حام وذريته السود . ونحن كاثوليك أو بروتستانت ، وإذن فغيرنا ممن ليسوا بكاثوليك أو بروتستانت يستحقون غضب الله . ونحن ذكور ، فالنساء إذن ناقصات عقل . ونحن رجال ، فالرجال إذن وحوش . ونحن شرقيون ، وإذن فأبناء الغرب كلهم جشع وطمع . ونحن غربيون ، فالشرقيون إذن قوم لارجاء فيهم . ونحن نعمل بأذهاننا ، وإذن فالطبقات المتعلمة هي أرقى الطبقات . أو نحن نعمل بأيدينا ، وإذن فالعمل اليدوي وحده هو الذي يكسب صاحبه الكرامة . وأخيرا — وفوق هذا كله — أن لكل منا ميزة خاصة هي شخصيته التي يتميز بها من غيره ، وإذن فهو خير عباد الله . بهذه الآراء التي تملأ أذهاننا نخرج إلى النضال في العالم . وبغير هذه الآراء قد تخوننا شجاعتنا . وبغيرها — في الظروف الراهنة — نحس بالحطة . لأننا لم نتعلم الاحساس بالمساواة . وإذا أحسنا حقا أننا مساوون لجيراننا لانتميز

منهم ولا نقل عنهم في شئ ، فلربما أسست الحياة أقل نصلاً ، وأصبحنا أقل حاجة إلى هذه الخرافات نخدر بها عقولنا لنستمد الشجاعة في الكفاح . ومن العقائد الخداعة الضارة التي يتعرض لها الأفراد كما تتعرض لها الأمم ، أن تتخيل طائفة من الطوائف نفسها أداة خاصة لتنفيذ إرادة إلهية معينة . فبنو إسرائيل كانوا يعتقدون عندما غزوا أرض المعاد أنهم إنما ينفذون إرادة السماء . وأهل روما كانوا يحسبون أن الالهة أرادتهم على غزو العالم . وكان كرمويل يؤمن إيماناً صادقاً أن العناية الالهية أرادت له أداة عادلة لهزيمة الكاثوليك . وهامهم أولاء الماركسيون يحملون اليوم سيف الله . وتقديس هذه العقائد يسوغ القسوة التي لايسوغها عقيدة من أصل دينوى .

إن العقيدة في رسالة سماوية صورة من الصور العديدة لليقين الثابت الذى يتصف به الجنس البشرى . وكثير من الشرور التي يصيب الناس بها بعضهم بعضاً ، منشؤها عقيدة يقينية بفكرة خاطئة آمن بها قوم من الناس . إن معرفة الحق أشق مما يظن الكثيرون . ومن أسباب الكوارث الكبرى التي تلم بنا أن يؤمن أحدها إيماناً ثابتاً لا يتزعزع أن الحق وقف عليه دون غيره . ولذا وجب علينا أن نرتاب فيما يزعمه لنا بعض أصحاب الرأى من أن الرضا ببعض الشر واجب إن كانت من ورائه فائدة مرجوة مرتقبة . وذلك لأن العلم بما يخبئه لنا المستقبل مستحيل . ومن العسير حتى على أحدها ذكاء أن يتكهن بما سوف يحل بنا نى بعد فترة وجيزة من الزمن . ومن ثم كان التسامح لازماً علينا في حياتنا الخاصة والعامة . كما أنه حتم علينا ألا نزعّم لأنفسنا قدرة خارقة على قراءة المستقبل . ولقد كنت أستطيع أن أسمى هذا المقال « الآراء تؤذينا » لأننا إذا أدركنا أن معرفة المستقبل مستحيلة ، وأن الآراء بشأنه كثيرة ، علمنا أن الرأى الذى نعتقه قد يرجح فيه الخطأ على الصواب .

إن كل ما تتصور حدوثه بعد عشرين سنوات خاطيء يقينا ، اللهم إلا إن كان شيئاً من قبيل أن الشمس ستشرق غداً مما لا يتصل بالعلاقات الانسانية . ولرب معترض يقول : كيف إذن يمكن السياسى أن يتدبر الأمر دون أن تكون معرفة المستقبل ممكنة ولو إلى حد ؟ وأنا لا أقول إننا

نجهل المستقبل جهلاً تاماً ، بل إني لأقول إن بعض التكهن بالمستقبل ضرورة لا بد منها . فمن التكهنات الصادقة أنك إن وصمت شخصاً بالدناءة والسفالة كان جزاؤك منه المقت والكراهية ، وأنك إن وصمت الناس جميعاً بهذا فانهم جميعاً يمتنونك . ولك أن تتكهن بأن المنافسة الدنيئة تولد سوء العلاقة بين المتنافسين . ومن المؤكد أنك لو سلحت أمتين تسليحاً حديثاً وسمحت لهما أن يحشدا الجند على الحدود بينهما ثم ساء الشعور المتبادل بين زعماء الأمتين ، توترت الأعصاب وبادرت إحدى الأمتين بالهجوم خشية أن تسبقها الأخرى إلى ذلك . ومن المؤكد أن حرباً كبيرة حديثة لن ترفع مستوى العيش حتى بين القوم الظافرين . مثل هذه القواعد العامة لا تصعب معرفتها ، وإنما بصعب علينا أن نتكهن تفصيلاً بالنتائج البعيدة لسياسة مرسومة . فبسمارك — مثلاً — انتصر في ثلاث حروب ووحد ألمانيا ، فكانت النتيجة البعيدة لهذه السياسة أن ألمانيا منيت بهزيمتين كبيرتين كانتا نتيجة أن بسمارك علم الألمان ألا يأبها بمصالح أية أمة غير ألمانيا . فخلق بين الألمان روح عدوان ألب العالم في النهاية على خلفائه .

إننا لا ننكر أن الآراء الاجتماعية التي يمكن أن نفيدها كثيراً جداً ، ومن أشلتها الإيمان بالحكومة العالمية ، وتحاشي الحروب ، ومعالجة البطالة ، وإزالة أحياء الفقراء القذرة وإقامة غيرها مما تتوافر فيه الشروط الصحية ، وما إلى ذلك ، آراء في الإصلاح . غير أنا لا نستطيع تحقيق أغراضنا لسوء نظام الحكم . فالحكومة إما مستبدة متحيزة أو ديمقراطية عاجزة .

فنحن إذن في الوقت الحاضر في حاجة إلى أمرين : أولهما التنظيم — التنظيم السياسي للتخلص من الحروب ، والتنظيم الاقتصادي لتكوين الناس من العمل المنتج وبخاصة في البلاد التي خربتها الحرب ، وتنظيم التعليم حتى تخلق في الجيل الجديد عقيدة ثابتة بضرورة الحكومة العالمية . وثانيهما أن نتخلق بصفات خلقية خاصة — هي تلك الصفات التي نادى بها علماء الأخلاق منذ زمان بعيد ، ولكنها لم تؤت ثمارها بعد . وأهم هذه الصفات حب الخير ، والتسامح ، والتخلص من التعصب الذي تدفعنا إليه الآراء السائدة .

وهذان الغرضان — التنظيم والأخلاق — متشايكان متداخلان ، يؤدي

أحدهما إلى الآخر . ومن واجبا أن نرمى إلى الغرضين في آن واحد . فلا مناص من التخلي تدريجياً عن الأخلاق الوضيعة التي تعقب الحروب عادة . ولا بد من زيادة تدريجية في المؤسسات التي بوساطاتها يستطيع الانسان أن يعاون مع أخيه الانسان . ولا بد لنا من أن ندرك عقلا وخلقاً في آن واحد أننا أسرة واحدة ، وأن سعادة فرع من فروع هذه الأسرة لا يمكن أن يتوقف على تدهور فرع آخر .

إن عيوبنا الخلقية تعوقنا عن التفكير السليم ، وتفكيرنا الشائب يشجعنا على التماذي في عيوبنا الخلقية . وإني لأرجو أن تبعث القنبلة الذرية الملعم في نفوس البشر فترشدهم إلى التفكير السليم وتهديهم إلى التسامح . وإن حدث هذا فقد استحق مخترعوها منا أطيب الثناء .

محمد محمود